صورة اليهود في الرواية السيرية "حنّة" لمحمد الباردي

The image of the Jews inautobiographical novel"Hanna" by Muhammad Al-Bardi

سعيد مراحي [1,*]، أد- نبيل مزوار [2]

[1] جامعة -الوادي-، (الجزائر)، merahi-said@univ-eloued.dz

[2] جامعة -الوادي-، (الجزائر)، mezouarna@yahoo.fr

مختبر التكامل المعرفي بين علوم اللغة العربية والعلوم الاجتماعية

تاريخ الإيداع: 2022/09/05 **تاريخ المراجعة:**2023/01/03 **تاريخ النشر:** 2023/12/31

ملخص:

يلحظ الدّارس للرواية العربيّة الحديثة، حالة شاملة من الانصراف عن تناول اليهود عموما إلا لماما، رغم التحام هذا العنصر بالنّسيج الاجتماعي في مناطق ومدن عربيّة عديدة بالأمس القريب. ولعل شحّة ذلك الاهتمام تعزى لكون وجودهم أساسا لم يكن موضوعا ذا بال يحفّز بواعث الكتابة فيهم.

ومع ما ساد العالم من تحوّلات خدمت العنصر اليهودي، انجرف لفيف من الأدباء العرب مع الصّورة المختلقة له حديثا، فانقلب ذلك العزوف إلى احتفاء إذ ذكروا تسامحه، وانفتاحه، وإنسانيته، على نحو ما برز في رواية "حنّة" للكاتب التونسي محمّد الباردي.

وتسعى هذه الدّراسة من خلال المقاربة الثّقافية التي توخّتها، رصد صورة اليهودي بتتبع وتحليل الأنساق المضمرة فيها قصد تجليتها، والسّؤال الذي يطرح نفسه في هذه الرّواية ومثيلاتها لماذا تدون ذاكرة اليهود بأقلام عربيّة؟ وما مبرّرات ذلك الانفتاح؟ وما حدوده؟ وما مراد الكاتب من تلميع صورة اليهودي فيها؟

الكلمات المفتاحية: الرّواية العربيّة، النّقد الثقافي، صورة اليهود، حنّة، التّطبيع الثّقافي.

Abstract:

Anyone who studies the modern Arabic novel will notice an abandonment of dealing with Jews, except infrequently, despite the integration of this element into the social fabric in many Arab regions. Perhaps that is due to the fact that their image at the time, was not a significant topic that stimulated the motives of writing about them. With the transformations, which served the Jews ،a group of Arab writers rushed towards this newly fabricated image of them. Therefore, this reluctance turned into a celebration as their pens invoked the mention of their humanity. as was evident in the novel "Hanna" by Muhammad Al-Bardi

This study seeks through the cultural approach to examine the image of the Jews.so What is the writer's intention of polishing the image of the Jews؟ What are the justifications for that openness and what are its limits?

Key words: *the Arabic novel, cultural criticism, the image of the Jews, Hannah, cultural normalization.*

* المؤلف المراسل.

تقديم:

إنّ حضور التّصور اليهودي بكل أبعاده في الوجود العربيّ أمر لا يمكن تغييبه أو اخفاؤه، إذ مع تصفّح تاريخ الأمّتين سنجد تداخلا تتلاشى معه الحدود، إلى أن تدخلت الصّهيونيّة وغيّرت معالم الأشياء، وبالتّركيز على الشّمال الإفريقي سنجد تجذّرا قويّا وكيانا يهوديّا متكامل البناء، وإنّنا إذا بحثنا عن أصل اليهود المغاربة نجد أصولا متعدّدة لا أصلا واحدا، لما حفلت به هذه المنطقة من تمازج حضاريّ وتنوّع عرقيّ.

وبما أنّ الأدب هو المرآة التي تترأى فيها مختلف صور المجتمعات البشريّة، فلا جرم أن تزخر موائده بكلّ ما يعتمل في الفكر ويشغل بال المفكرين والعوامّ على حدّ سواء، وإذا أمعنّا النّظر فيما قيل فإنّنا نكاد نجزم بخفوت صدى اليهود في مسارح الأدب العربيّ قديما، وربّما عزونا ذلك لقلّة اهتمام بهذا الجانب لكونه لم يشكّل موضوعا ذا بال حينها، إذ _على ما يبدو _ كانت صورة اليهود أمرا لا يستدعي اهتماما خاصّا، إذ أنّ باعث الأدب في النّفس البشرية هو عوامل تسترعي انتباهها وتستثير اهتمامها.

ومع سيرورة التّاريخ وتغيّر المعطيات، أُستحدثت صورة لليهود في الأدب العربيّ، صورة اليهوديّ الصّهيونيّ، الذي بدأ وجوده المقلق والمستفزّ يخيّم على وجدان الأمّة العربيّة، إذ أنّ وعد بلفور عام 1917م شكّل انطباعا مستحدثا لم يكن من قبل في المخيال العربيّ، مفاده أنّه بات خطرا وشيكا وعدوا يتحيّن فرصة الانقضاض على ثوابت الأمّة، "فالأعمال الفنيّة والرّوائيّة العربيّة التي تناولت اليهود حينها، قد تناولتهم خارج الأطر الاجتماعيّة الموجودة في بعض الدواخل العربيّة، واقتصرت على تناول العدوّ الصّهيونيّ ذي الملمح الواحد"[1]، وشيئا فشيئا راحت تتضخّم هذه الصّورة، حتى ابتلعت الصّهيونيّة المعنى اليهودي القديم في الفكر العربيّ، وحلّ محلّه الصّهيونيّ السفّاح القاتل والمغتصب للأرض، تزامنا مع النّكبة 1948م.

ولأنّ الفكر البشريّ لا يملك إرادة مستقلّة عن مدّ وجزر الأحداث العالميّة، فقد انجرف المفكّرون العرب - ونخصّ بالذّكر الأدباء- مع تيّار التّصوّر المختلق حديثا للعنصر اليهوديّ، فنجد احتفاء منقطع النّظير بذكره واضفاء صبغة من الإيجابيّة والتّسامح والانفتاح. ومع تصاعد وتيرة التّطبيع مع الكيان الصّهيونيّ لمع نجم روايات عربيّة تضفي على اليهود مسحة من الإيجابيّة والخيريّة -متناسية الوجه الصّهيونيّ له -، مبهرجة عملها بحلل من الخيال الذي أصرّ على استحضار اليهوديّ العربيّ الأصيل، "فالاستقراء الأوليّ للأعمال الرّوائيّة العربيّة التي صدرت بعد عام 2003م، يكشف عن تغيّر كبير لحق بهذا الموقف الرّوائيّ، حتى وصل إلى حد الاختلاف والتّناقض، إذ شهد غيابا كبيرا للشّخصيّة الإسرائيليّة الصّهيونيّة العدوانيّة عن المشهد الرّوائيّ، والعودة إلى حياة اليهوديّ الشّرقيّ العربيّ في الماضي القريب أو البعيد، لتقديم صورة معتدلة له، بوصفه مكوّنا طبيعيّا في نسيج المجتمع العربيّ"[2]، متغنّيا بتاريخ حافل بصور من التّآخي والتّعايش والتّقارب والتّلاحم، جانحة بذلك إلى المبالغة في كثير من الأحيان لتغطّي عن سابقتها التي طالما أساءت لليهوديّ، فاتحة بذلك آفاقا جديدة لمعطيات راحت تتشكّل تباعا ملوّحة بمشهد دراماتيكيّ جديد. وبذلك تشكّلت معالم صورة يهوديّ مسالم متسامح يسعى لخير الإنسانيّة جمعاء. وقد برزت على السّاحة العربيّة أعمال روائيّة عديدة تتبنّى النّظرة الجديدة، وبطبيعة الحال لم

تتغيّب الرّواية المغاربيّة عن ذلك، بل أعلنت عن حضورها بأعمال أدبيّة كان لها وزنها في الميدان الفكريّ، فلا يحتاج المتابع للسّاحة الثّقافيّة المغاربيّة ولإصداراتها الأدبيّة في العقد الأخير إلى كثير من التأمُّل، كي يلاحظ كثرة الرّوايّات التي تتناول اليهود موضوعًا لها، بل إنّ كثيرا منها يحمل عنوانًا له علاقة مباشرة باليهود، من هذه الرّوايّات على سبيل المثال لا الحصر، أنا وحاييم، اليهوديّ الأخير في تمنطيط، في قلبي أنثى عبريّة وغيرها. وتكشف هذه العناوين بجلاء عمّا اتّسمت به من توجه إيجابي نحو اليهود، على نحو يبعث على الاطمئنان إلى الفرضيّة التي يقوم عليها هذا البحث، ومن ذلك أنّنا نجد وصف اليهودي بالجميل في رواية في قلبي أنثى عبريّة، ونجد كذلك اليهوديّ الصديق الحميم في رواية أنا وحاييم وغيرها من الصّفات الإيجابيّة، وتسعى هذه الدّراسة إلى رصد صورة اليهوديّ في السيرة الرّوائيّة "حنّة" للكاتب التّونسيّ محمّد البارودي، فالحضور المميّز لليهود في هذا العمل يطرح كثيرا من التّساؤلات عن مثل هذه الكتابات، لماذا تدوّن ذاكرة اليهود بأقلام عربيّة؟ ما مراد الكاتب في استحضار شخوص يهوديّة؟ وما الّذي قصد إليه حين يمّم شطر الذّاكرة اليهوديّة في تونس؟

1-التّعريف بالكاتب:

ولد محمّد رجب البارودي سنة 1947م في مدينة قابس بتونس، حاصل على دكتوراه الدّولة في اللّغة والآداب والحضارة العربيّة. له إنتاج علميّ غزير في مجال النّقد الأدبيّ من أعماله: الرّواية العربيّة والحداثة، في نظريّة الرّواية، تأملات في الرّواية التّونسيّة وغيرها، كما كان كاتبا مبدعا من أعماله الرّوائيّة: الملاّح والسّفينة، حوش خريف، "حنّة"، توّج بجائزة الكومار الذهبيّ للرّواية العربيّة عن رواية "كرنفال" عام 2005م، وعن رواية "ديوان المواجع" عام 2014م، وأسّس مركز الرّواية العربيّة بقابس عام 1992م، توفّي عام 2017م.[3]

2-تلخيص متن الرّواية السّيريّة "حنّة":

محمّد البارديّ كاتب مبدع وناقد له وزنه ومكانته في المجالين، أمّا في سيرة "حنّة" فهو يتزيّا بزيّ الرّوائيّ، حيث وبكثير من المتعة والتّشويق يغوص بنا في بحر حياته الزّاخر، والسّيرة أنشئت أساسا لتخليد سيرة الكاتب في صفحات بلغت 268 صفحة، وقد امتازت بفنيّات عالية وجماليّة أخّاذة، تمثّلت في سرد تفاصيل حياة الرّاوي اليوميّة والوقائع المعاشة في مدينة قابس، خلال فترة الخمسينات من القرن الماضي، حيث روى تفاصيل حياته الصّغيرة، ثمّ انطلق نحو ما يحيط به من بشر ومن موجودات، بمختلف انتماءاتها وأنماطها، وفي السّيرة رسم لجوانب الحياة الاجتماعيّة، والعلاقات الأسريّة من خلال مجموعة من الشّخصيّات، فيطّلع القارئ على حياة الجيران في الحيّ الواحد، والعلاقات بين اليهود والمسلمين، وسيرة "حنّة" حتّى وإن كان الحضور اليهوديّ محتشما فيها، إلاّ أنّها حرصت على إبرازه في هيئة مميّزة وحادّة الحضور، ففي أركان قصيّة من قصّة حياته، أضاءت أنوار خافتة لشخوص يهوديّة، حبكت له جزءا مميّزا من أوشحة الذّاكرة، ورصّعت أيّاما من حياته الماضية بتفاصيلها، فقد كانت العبارات التي تناولت هذا الموضوع جذّابة أنيقة تعبّر بصدق عن مشاعر صاحبها والانطباعات التي رسخت بأعماقه تجاه هذا الوجود الخاصّ بالنّسبة إليه. ونلحظ ذلك ابتداء من الصّفحة 41 إلى 266 بأسطر تزيد أو تنقص حسب همّة الكاتب، وإذا اعتبرنا هذه الأقاصيص المقتضبة تعدّ مقبولة معقولة لا غبار عليها،

احتكاما إلى أنّها كانت جزءا من حياته، لكن حضور الأخر المميّز والأنيق المتباين مع الأنا المتردّي والمهمل يثير نوعا من الفضول، وهذا ما سنحاول تقصّي أثره في السّيرة.

3-إشكاليّة التّجنيس:

ينضوي العمل الإبداعيّ الّذي سنشتغل عليه تحت لواء 'الرّواية السّيريّة'، والرّواية السّيريّة أو الرّواية السّير ذاتيّة هي من الأجناس الوافدة والمستحدثة؛ وهي جنس أدبيّ تولّد من تعالق جنسين أدبيين يتقاربان وهما السّيرة الذّاتيّة والرّواية، إلاّ أنّ "السّيرة الذّاتيّة الرّوائيّة هي إلى السّيرة الذّاتيّة أقرب منها إلى الرّواية، والكاتب فيها يظلّ عبارة عن مؤرّخ للوقائع التي واجهته في حياته، إلاّ أنّه يزكّيها بشيء من الخيال يضمن انتماءها إلى الرّواية باستعاراتها ومجازاتها وإغراقها في اللاّواقعية[4]" ، فالرّوائي عادة ما يزاوج بين الواقع والخيال لتأثيث نصّ حيّاته، باللّعب بتقنيات سردية متعدّدة في طرح مواضيع مختلفة.

وترتبط الرّواية السّيريّة بخطاب الذّاكرة، الذي يصبو من خلاله المبدع إلى تقديم صورة عن حياته الماضية، بمراحلها المختلفة، وهذا ما يدفعنا لمحاولة كشف التّعالق بين الرّواية السّيريّة وبين الذّاكرة.

4-اشتغال الذّاكرة في الرّواية السّيرية "حنّة":

" إنّ الكتاب المعاصر كما يقول أمبرتو إيكو كتاب مفتوح، والنّصوص المعاصرة هي نصوص متمرّدة على الأنواع المألوفة: الشعر والرّواية والسّيرة الذّاتية"[5]، فيمكن أن نجد أراء النّقاد أو النّاشرين على ظهر الكتاب، لكن ذلك لن يجعل القارئ يطمئن اطمئنان التّسليم بنوع الكتاب الذي بين يديه، فكم من رواية تتضمّن السّيرالذّاتي، وكم من نصوص سير ذاتيّة مزيّفة كتبها صاحبها بوعي أجناسي متراكم متداخل وبذاكرة نصيّة تتحدّث عن سير مؤلفين آخرين"[6]، فبكثير من الشّجاعة استطاع محمّد الباردي أن يعبر بالقارئ نحو دهاليز وأقبية الذّاكرة المظلمة، دون أن يروغ نحو التّغطية والتّستر استكنافا منه أن يوقعه ذلك في ما يشبه تحريف نفسه، وبغضّ النّظر عن المتعة التي تحقّقها "حنّة" لقارئها، وهي تتجوّل به بين أحياء قابس، فيستروح منها عبق ذلك الزّمن الماضي، فيسترسل بخياله نحو تلك الأحداث والشّخوص، فإنّها من النّاحية العلمية التي تنضاف للمسيرة الأكاديميّة للمؤلف -التي سعى من خلالها للمزاوجة بين السّيرة الذّاتية والرّوائية-، حيث تكسب هذه المساحة الإبداعيّة حريّة غير محدودة في التّلاعب بالتّجربة الشّخصية للروائي، وقد صرّح لنا بذلك : "ستضيف كل رواية إلى المشهد عنصرا جديدا وسيلعب الخيال لعبته"[7]، وهنا يوقفنا الكاتب وجها لوجه مع ثنائية الذاكرة والنسيان، حيث تطفو على السّطح كل التّفاصيل العزيزة، وترسب الأحداث غير المهمّة بعيدا في غور النّسيان، "فالأشياء التي ننساها هي الأشياء التي لا تؤثّر فينا، لكن تلك التي لانزال نذكرها تشعل في قلوبنا حريقا لا تقدر الأيّام على إطفاء جذوته"[8] ثم اعترافه " النّسيان آفة تلتهم كل شيء"[9]، وكتعويض عن هذا الفقد الذي يسبّبه النّسيان، يلجأ إلى التّلاعب بالتّقنيات السّردية المتنوعة، وقد استهلّ الباردي سيرته بمقولة لمحمّد شكري: "ليست هناك كتابة بريئة، الكتابة فيها كثير من الكذب، وأنا من أكبر الكذّابين، وفيها كثير من المراوغة وأعتبر نفسي من المراوغين"[10]، فنجده يزاوج بين الواقع والخيال في فضاء إبداعيّ خلاّق، مؤثّثا حياته بتفاصيل عايشها وأخرى من

نسج خياله، فأغلب كتّاب السّيرة -كما يذكر جورج ماي- وهبوا خيالا مجنّحا، "ويمكننا هنا أن نتحدّث عن وهم سيرذاتيّ باعتبار أنّ من يكتب سيرته الذّاتية سيجانب الحقيقة، ويتذرع بحجج النّسيان وسيتفنّن في نعت الذّاكرة بالقصور والعطب والنّقص والتشوّه أو بالمرض وبالثقوب والاضطراب والضبابيّة"[11]، فجسّدها لنا كلاما يقبل الأخذ والرد، يقبل التّصديق والتّكذيب.

6-الإطار التّاريخي:

لسيرة ""حنّة"" بنية خاصّة جدّا، فالرّاوي فيها يخاطب القارئ عند بداية الأحداث، وتناوب الفترات الزمنيّة، فهي أشبه بالمذكّرات أو اليوميات، كما أنّ فيها كثيرا من الاستطرادات التي تنتقل بالقارئ بين الأزمنة والأحداث السّابقة تاريخيا، فنلحظ أنّ الكاتب ينطلق من سرد أحداث يعايشها، وهو الزّمن التّأليفي، ثم ينتقل بنا إلى سرد طفولته، وهو ما يسمى بالزّمن الرّوائي، والكاتب لا يغيب عن مسرح الأحداث، فيطلّ علينا عند مطلع كلّ فصل وأثناء الحكي ليذكّرنا بما يتحكّم في انفعالاته وهو ينتقل من الماضي إلى الحاضر.

7-<u>صورة اليهود في سيرة "حنّة":</u>

7-1-تبديد الوهم وكشف المغالطات:

جاء التّجلي الأوّل لليهود في سيرة "حنّة" كرسول يجلوا الشّك باليقين ويدحض الأباطيل المتجذّرة تجاههم، وظهر ذلك من خلال التّصورات القائمة الحريصة على نبذ اليهود بإجماع "كانت أمّي توصيني بالابتعاد عن الحارة، كانت تقول ابتعد عن أبناء اليهود، وكانت تقول أيضا الحارة نتنة، طعام اليهود نتن، وثيابهم نتنة وأجسادهم نتنة"[12]، وبتبديد هذا الوهم الذي سدّ آفاق الرؤية، انجلى مشهد مختلف تماما عمّا رسخ في ذهن الكاتب، جعله يعيد صياغة قناعاته نقضا لما ألفه، حتى يصل إلى قناعة راسخة مفادها أنّ كلّ ما نشأ عليه محض مغالطات، "لم أجد ما يبرّر كلام أمّي وموقفها وأنا أشمّ رائحة العطور المنبعثة من أجساد النّساء وأثوابهنّ الجديدة"[13]، فقد تقرّر عنده أنّ المرأة-الأمّ- التي يصفها بالصّلاح والحكمة والرّويّة في أغلب المشاهد، أنّها كانت طرفا أصيلا في تنميّة الوعي الضّدي بالأخر لديه، فما المرمى القصيّ الذي رمى إليه الكاتب حين رسم لنا صورة الأمّ المتحاملة والمشوّهة لصورة اليهوديّ العذبة ؟

يبدو أن الكاتب مكبّ على استقراء ما نشأ عليه من أقاويل وما ألفه من أراء، لينقض بذلك أركان هذا البناء الفكريّ القائم، ويعيد صياغة قناعاته بشيء يشبه تلميع صورة أو تبرئة ذمّة لأمّة، بما أحال ضمنيّا إلى وجود خلل متأصّل عرى هذه الصّورة لأماد طويلة في مخيال الإنسان العربيّ.

7-2-انتقاص الذّات مقابل مثاليّة الأخر:

أو كما سمّاها غسّان كنفاني "العصمة اليهوديّة" أمام عدم جدارة الشّعوب الأخرى، فمن خلال تتبعه للآداب التي تحتفي باليهود لاحظ كنفاني "أنّ البطل اليهوديّ المعصوم، الذي يمثّل التّفوق المطلق على جميع المستويات، سيتقدم خطوة وراء خطوة ليصبح ظاهرة ملحوظة في الأدب"[14]، وهذا ما طرأ بالفعل على الرّواية

العربيّة المعاصرة، "فهذه الرّوايات الجديدة لم تكتف بتقديم صورة لليهود أقرب إلى المثالية فحسب، ولكنها راحت تقدم صورة شائهة لأبطالها من غير اليهود، فكأنّها تُكْسِب اليهود سمات إيجابية عن طريق اختصاص غيرهم بالصفات السلبيّة"[15]، ففي سيرة ""حنّة"" لم يتوانى الكاتب في إظهار انبهاره بالأخر اليهوديّ، في كل سانحة سنحت أو بادرة لاحت، ولم يتحرّج كذلك في إظهار المسلمين من بني وطنه في ثوب المهمل والجافي والمتخاذل، جانحا في حاليه إلى الغلو والتّطرف، " أما أنا فكنت أرتاح إلى سارة، كانت أصغر مني بقليل ولكنّها كانت تتكلم الفرنسيّة، فقد كانت تذهب إلى الماترنال، في سنّها المبكّرة، ولذلك كانت تطعّم لهجتها التّونسية بكلمات وعبارات فرنسيّة"[16]، مثّل اتقان اللّغة الفرنسيّة معيارا للتّفوق الحضاريّ بنظر الكاتب، فهو يبدي انبهاره بالفتاة سارة وهي تتكلم الفرنسيّة، واللغة ليست مجرّد نظام صوتيّ، فهي تحيل إلى القيم التي تعكس رؤية الأمّة لذاتها والعالم، فإتقان سارة للفرنسيّة يكشف عن مدى تمثّلها لقيم المجتمع الفرنسيّ، الذي يبدو أنّ اليهود في تونس قد تبنّوا قيمه، "وكانت تقول أناشيد وقصائد، وتتحدّث عن الأنسة التي تعلمها في المدرسة، كانت تلاعب الأطفال، وتعطيهم الحلوى عندما يجيبون عن أسئلتها، وكانت تخرج بهم أحيانا إلى الواحات، تجلب لهم عربات تجرها أحصنة يركبونها، وتذكر سارة كيف كانت تجلس إلى جانب الحوذيّ، كانت سعيدة لأنّ آنستها تسمح لها بأن تجلس إلى جانب الحوذيّ، وتروي كيف كان أطفال الماترنال يتجوّلون في الممرّات الضيّقة، المتقاطعة التي تخرق الواحات، وعندما يتعبون يأكلون اللّمج التي أحضروها معهم ثم يعودون للعربات التي تظل في انتظارهم"[17]، أمام هذا العالم الجميل الذي تعيشه الطّفلة اليهوديّة سارة، يأتي على النّقيض منه عالم طفولة الرّاوي، "كانت حكايات الصّغيرة سارة تثير في نفسي وجعا كبيرا، لأني كنت أذهب إلى الكتّاب في جامع سيدي إدريس، وكان المؤدّب شيخا طاعنا في السّن، لكنّه لا يزال قادرا على الإمساك بعصا طويلة، يهوي بها على الأطفال الصّغار الذين يرسلهم آباؤهم لحفظ القرآن الكريم، يحفظون آيات وسورا لا يفهمون منها شيئا، وكان في أغلب الأحيان ينتحي ركنا في المسجد ويتمدد على الحصير وينام، ويتركنا إلى صبيّ ضخم الجثّة يصيح بالآيات القرآنيّة، ويسقط علينا العصا الطويلة، لأنّه يريد أن يكون مثل سيّده في عنفه وجبروته"[18]، هذه العبارات وإن بدت في ظاهرها مقارنة بين عالمين متباينين، لكنّها تفضي بنا في الأخير إلى تجميل الأخر على حساب تشويه الذّات، هذا ما نلفي له نظيرا في الرّواية الصّهيونيّة "الإغراء الأخير" لجوزيف غرونتال، يقول كنفاني معلقا عليها: "بوسع القارئ أن يشهد المقارنة في تلك الحيرة الشديدة التي انتابت صبيّة يهوديّة تجيد الإنجليزية والألمانية والدانمركية والفرنسية والعبرية، في دكّان عربيّة لا يستطيع من فيها سوى الرّطن بالعربيّة، وإذا كان هذا وحده دليلا قاطعا على عبث الالتقاء بين ذلك التّفوق اليهوديّ والتّخلف العربيّ، فإن المدهش أكثر هو أن أرض تلك الدكان لم تكن قد كنست منذ عشر سنوات على الأقل"[19]، وهذا تشابه غريب مع ماورد في سيرة "حنّة"، وفي فصل أخر من رواية الإغراء الأخير يصف غرونتال أطفال العرب، "والأطفال العرب تبدو حياتهم عديمة النّفع عكس معنويّات الأطفال اليهود، لم يكن يبدو أي نوع من المرح والأغاني والألعاب أو الأهداف بين الأطفال العرب، كان وجودا جامدا، جيلا جديدا يولد في قافلة أبديّة تسير في صحراء لا نهائيّة"[20]، كما نجد في "حنّة" وصفا مبهرا لحارة اليهود وسكّانها "لا أدري كيف ساقتني قدماي إلى الحارة...عندما ولجت الحارة ،كانت معالم الزينة والفرح بادية على أبواب الدكاكين والمنازل، الأعلام متعددة الألوان يحركها نسيم خفيف، والأطفال يلعبون ويجرون في كل اتجاه، والدّكاكين مفتوحة تبيع الحلويات واللعب، وفريد الأطرش يغني يخرج صوته من مذياع معلّق بالحائط، وباعة البيض وخبز الطابونة

يجلسون أمام قفافهم على مقاعد خشبيّة قصيرة، والبنات الجميلات يقفن أمام الدّكاكين يساومن ويبتعن"[21]، أمام هذه المناظر الجميلة يقف الأطفال العرب في حالة من البؤس "كان شاب يهوديّ يقف أمام الباب غير مرتاح وهو يرى أطفالا من أبناء المسلمين بملابسهم الرثّة يقفون بعيدا أمام دار الصلاة "[22].

بالرغم من الاطلالات المحتشمة للشّخوص اليهوديّة في هذه السّيرة، لكنّها كانت إطلالة تمتاز بالرقّة والعذوبة والحسّ الحضاريّ المرهف، فقد كانوا حسب الكاتب مهتمين بنظافتهم ومأكلهم ومشربهم، فيما بدى العربيّ بدويّا جافيّا متقشّفا "ويقول أبي أيضا اليهود يحبون الماعز، وكل الفلاّحين في الحيّ يربّون الماعز لليهود، نحن لا نشرب الحليب إلاّ عند المرض، ولا نأكل اللّحم إلاّ في العيد، ولكن اليهود وحدهم كانوا يشربون الحليب ويأكلون اللّحم"[23].

ويمضي الكاتب ممعنا في الحطّ من قيمة كل ما هو عربيّ إسلاميّ- وكل أسفل له أعلى-، لنحيد في أخر المطاف مع الكاتب إلى عالم الشّخوص العربيّة، التي كان لها النّصيب الأوفر من القبح والانحطاط، "فبينما نجد العاهرات والبغايا وطالبات المتعة الحرام غالبا من اليهود، نجد من بين الرّوائيين في هذه الحقبة المعاصرة من يقصر العهر والبغاء على المسلمات، في الوقت الذي تظهر فيه اليهوديّات أقرب إلى القدّيسات الطّاهرات"[24]، فبائع الغاز تربطه علاقة محرمة بحرم أبيه، والعم علي لا يقف في استهتاره عند حد، إذ تعشّق جارته "جنّات"، ولم يبخل عن أبيه بهذه المآثر أيضا. فلوهلة تضيع معالم الأشياء وتتلاشى قيم المجتمع المسلم المحافظ، في دوّامة الانحلال والاختلاط، لتشرق علينا من بين لفائف السّيرة صورة اليهوديّ النّظيف الملتزم والمحافظ.

لنخلص بذلك إلى أنّ النّص كان أشبه شيء بحجج وبراهين تدين العربيّ وتبرئ نظيره، ونستشهد هنا باستدراكه على التّصورات السّابقة التي كانت تسيء لليهود، كأن يكونوا قذرين أو متّسخين، بل نسب ذلك للعرب واعتبرهم السّبب المباشر في إحداث الروائح الكريهة والمناظر القبيحة في الحيّ العربيّ "عندما أدخل الساباط الأوّل أضع كفّي على أنفي وأكتم نفسي إلى أن أخرج منه"[25]، ومن خلال ذلك نستشفّ مقارنة مضمرة بين العنصر العربيّ والأخر اليهوديّ، تفضي إلى استعلاء الأخر ورقيّه وتحضّره حين صار محط إعجاب وانبهار، أفضى إلى الشّعور الحاد بالنّقص والتّنكر للذّات، دلّ على ذلك كم العبارات التي كانت تصف وضعا مترديا، وبناء اجتماعيّا متهالكا، وسديما من العلاقات المختلطة المتّسمة بالدّونية والإسفاف، وشخوصا هزيلة متخاذلة، حيث وفي تعريض مضمر بدى كلب ألمانيّ يمتلكه تاجر يهوديّ أعلى قيمة من كلب عربيّ! "انظروا إليه، هذا ليس كلبا عربيّا جبانا تأكلونه في الواحات إنّه بارجيّ ألمانيّ سيبتلعكم إن دخلتم الساباط ومررتم أمام البيت"[26]، وهذا يخدم النّظرة الدّونية اليهوديّة تجاه العرب، يقول أحد المفكّرين اليهود عن نظرتهم للعرب: "بعد كل ما نقول ونفعل، ننظر إلى العرب من عل، ولا نأخذهم جدّيا، إنّنا نشعر بالتّفوق عليهم وأنّه من الصّعب التّصور بأنّ هذا الشّعور سيختفي ذات يوم...وإنّ اليهود سيعلّمون العرب كيف يرتقون ببلادهم"[27].

ولا يتّضح هنا السّبب الحقيقي الذي جعل الكاتب يبرز الجانب المعتم من الشّخصيات العربيّة المسلمة بهذه الطّريقة، أشعورا منه بالنّقص والانهزاميّة؟ أم سردا لحقيقة واقعة؟ أم خدمة لأجندة خفيّة؟

7-3- الانبهار بعالم الأخر:

يستمر الكاتب في هندمة الذّات اليهوديّة في شكلها الجديد، والولوع بمحاسنها، "فالفتاة اليهوديّة رمز للإغواء، وفي الوقت ذاته رمز للانفتاح والتّحرر الذي يقابله الاحتشام والانغلاق وتجنُّب المخالطة من جانب الفتيات العربيّات"[28]، ففي وصفه للبنات اليهوديّات يبدع الباردي في تصوير مفاتنهنّ "لم أرى سيقانا بيضاء كتلك التي رأيتها ذلك اليوم، لباسهنّ وزينتهنّ يوم الزّيارة أضفيا عليهنّ جمالا لم تره عيني"[29] فيما تبدو الفتيات العربيّات خياما سوداء لا يستطيع أن يميّز منهنّ شيئا "بنات الرّحبة، يقفن حول الحنفية ينتظرن دورهنّ، وقد غطّين أجسادهن بملاءات طويلة فلا أرى إلاّ وجوها لا أستطيع أن أميّز بين قسماتها"[30] ، وتغدو المرأة اليهوديّة مثالا للجمال والغواية، فأقحم شخصيّة الرّاقصة "جودة" في مضمار الأحداث، مضفيا عليها هي الأخرى صبغة الشّغف والانبهار، وقد كانت محط إعجاب وافتتان الشبّان، وذلك لحسنها ودلالها "نزلت جودة بفستانها الأبيض الأنيق وشعرها الذي ينسدل على كتفيها، وعينيها المكّحلتين، كانت تمشي متهادية توزّع بسماتها على اليمين والشمال، وكنّا نحن أبناء الشّارع نمشي ورائها نتنشّق رائحة العطر التي تتركها وهي تمشي"[31].

وربما غدى الأخر اليهوديّ -عنده- رمزا للحبّ والجمال، "فلقد تبدّلت صورة المرأة اليهوديّة الغانية في المرويّات الحديثة، بصورة المرأة اليهوديّة الحبيبة أو المعشوقة، والتي يسعى المحبّ للتقرّب إليها"[32]، "مشهد اليهوديات القادمات في وفود متعاقبة إلى دار الصّلاة يثيرني، تظلّ صورة اليهوديّة الشّابة وهي في فستانها الضيّق الذي يحوي مفاتنها، تطاردني الليل كله، وتتوالى اللّيالي التي أرى فيها اليهوديّة الجميلة"[33].

7-4- تغيير الصّورة النّمطية لليهودي بخلعِ صفات نبيلة عليه:

كما أسلفنا الذّكر ركّزت الرّوايات العربيّة المعاصرة على تغيير الصّورة النّمطية لليهود، "ويصل هذا التّحول إلى ذروته عند تقديمه بطلا نبيلا يبلغ المثال، من غير شائبة تشوبه، حيث يتّصف بصفات الكرم والمروءة والشّجاعة وأخلاق الفرسان، والنّضال من أجل الحقّ من غير خوف ولا تردد"[34]، ففي سيرة "حنّة" اتّصف اليهود بـ:

أ-الكرم: أشارت سيرة "حنّة" إلى كرم اليهود وتوزيعهم المنح والعطايا على أبناء المسلمين، "ولكنّ رجلا ملتحيا خرج من دار الصّلاة، يحمل قفة تحوي بيضا مسلوقا، اتّجه نحونا ودعانا إليه"[35]، وهذا على عكس ما قرّ في الأذهان، وكثرة ما روي عن اليهود في الأثار والكتب من شدّة الحرص والبخل، رجل الدين اليهودي الكريم يقابله إمام مسلم جشع بخيل "يوم الخميس يأتي سيّدنا إلى دكّته يراقب صبيّه وهو يقف أمامنا واحدا واحدا، فاتحا قفّته يطلب الخموسيّة، وكانت الخموسيّة عادة ثماني بيضات كنا نجلبها في قفاف صغيرة، وكان الصّبي يقلّب البيضات واحدة واحدة، فإذا عثر على بيضة مكسورة، فإن حاملها ينال عقابا مؤلما"[36].

ب-السّماحة: نلمح مشهدا أخرا حين يذهب العربيّ إلى حارة اليهود ليبيع الحليب " أقف عند الباب وأقرعه، تخرج المرأة وتمد الإناء، تظلّ واقفة تنظر إليّ وأنا أمسك ثدي العنز المنتفخ وأبسمل وأضغط، تضلّ اليهوديّة تنظر إلى الحليب المنسكب في الإناء وتقول: ما شاء الله، ما شاء الله، ثم تقول: الإناء في نصفه يا ولد، أمسك الثّدي الأخر، لكنّي لا أفعل، أحرر حافر العنزة، وأمد الإناء لليهوديّة تتأمله مليّا وتقول مشيرة إلى رغوة الحليب كسكوس-كسكوس، ومع ذلك تمد لي خمسة فرنكات"[37]، هنا تتجلى سماحة اليهوديّة، حتى وهي تعلم جشع العربيّ وتحايله في تجارته إلا أنّها تغض الطّرف وتنقده ثمن الحليب كاملا!

ج-النّظافة: في التفاتة مثيرة وإطراء لطيف من الكاتب حول نظافة حارة اليهود، جعل من فضلات منازلهم طعاما شهيّا لحيوانات العرب "كانت المعزات الثلاث تعرف طريقها، تشق الرّحبة متثاقلة ثم تسرع عندما تدخل الحارة، كانت تجد في فضلات المنازل إفطارا تعوّدت عليه فأحبته"[38].

د-الشّهامة: يبدو الكاتب مجتهدا في تجميل صورة اليهود ودحض كل الصّور النّمطية السّائدة حولهم، فمما ساد حول شخصيّة اليهودي أنه لا يغار على عرضه، "فتحفل النّصوص الأدبيّة العربيّة التي أتى فيها أصحابها على تصوير شخصيّة اليهوديّ بإبرازه قوّادًا أو ديوثًا، ويعتمد الكتّاب العرب على روايات دينيّة وتاريخيّة، ومنهم من يعتمد على تجارب عاشها شخوص قريبون من الكتّاب، وكل من أقام في فلسطين، قبل عام 1948م وبعده، يلحظ بوضوح ظاهرة الدّعارة العلنيّة، البّغيّ وقوّادها"[39]، يفنّد البارودي هذا الادّعاء، "كان شاب يهوديّ يقف أمام الباب غير مرتاح وهو يرى أطفالا من أبناء المسلمين يقفون بعيدا أمام دار الصّلاة، ينظرون إلى الفتيات اليهوديّات، وهنّ يدخلن أو يخرجن"[40]، فمن شدّة غيرة اليهوديّ وحرصه على الفتيات اليهوديّات، يتضايق بمجرد أن يحدّق إليهنّ طفل مسلم لم يبلغ الحلم!

هـ-التّدين: يلحظ الدارس لسيرة ""حنّة"" أن أغلب العبارات التي ورد فيها ذكر اليهود اقترن فيها وجودهم بالكنيس والصّلاة، فنرى اليهوديّ الذي يدأب على أداء صلاته والتّمسك بعقيدته "يقضي اليهود يوما كاملا في دار الصّلاة"[41]، يصف كنفاني أبطال الرّوايات الممجّدة لليهود بقوله "إنّ البطل اليهوديّ هو نبيّ من طراز معجز، يزيد في إعجازه كونه أداة إلهية"[42]. ونرى أنّ هذا التّحول جاء بهدف رصد الشّخصية اليهوديّة الموسويّة كمكوّن من مكوّنات المجتمع العربيّ، في محاولة للتّفريق بين اليهوديّ الموسويّ الذي لم يكن يوماً عدواً وبين الصّهيونيّ المحُتلّ، مصحّحة بذلك الصّورة النّمطية التي اعتمدت نماذج استثنائيّة بدى فيها اليهوديّ إنسانا فاجرا وشهوانيّا.

7-5-اليهوديّ التّائه المضطهد:

ترتد شخصية اليهوديّ التّائه إلى أصول أسطوريّة دينيّة قديمة، "وتنسلخ هذه الأسطورة عن مرامها الدينيّة وتضحي ذات علاقة مباشرة بأوضاع اليهود الاجتماعيّة، ومن ثمّ بأوضاعهم السياسيّة، وما تلبث أن تستخدم في التّرويج للدّعوة العنصريّة"[43]، فاستغلت الألة الدّعائيّة الصّهيونيّة كلّ الوسائل المتاحة للتّرويج لفكرة اليهوديّ المظلوم "فيلاحظ المتابع لتاريخ اليهود العرب، في المصادر الصّهيونيّة وفي الكثير من المصادر الغربيّة المتعاطفة

معها، فجاجة كبيرة في تزوير التّاريخ والوقائع، تصل إلى حدّ الصّدمة، فيُعْرَض تاريخ الطّوائف اليهوديّة في المجتمعات العربيّة والإسلاميّة على أنّه سلسلة متّصلة من الاضطهاد والتّعسف المستند إلى موقف متأصّل بالعداء في الدين الإسلامي"[44]، هذا التّزوير والتّلفيق التّاريخي سنجد له مصوّغا منطقيا، فقد خدمت هذه الحملة أغراضها الأساسيّة، وذلك بتعميق الإحساس بالشّك والقلق المتزايد وبثّ الرّعب بين الطّوائف اليهوديّة في الدّول العربيّة، من أجل تغليط الرأي العام وتبرير الهجرات اليهوديّة نحو فلسطين، حتّى تضمن التّعبئة الشّعبيّة لمشروعها الاستيطاني "فخروج اليهود من البلاد العربيّة هو، ولا شكّ، إنجاز كبير للحركة الصّهيونيّة، فهو بداية فصل أخر في تاريخ علاقة هذه الطّوائف بمجتمعاتها العربيّة.. إنّه مؤشّر النّهاية لقرون طويلة من العيش المشترك"[45]، ولكن ما يثير الفضول ويسترعي الاهتمام هو تلك الأقلام العربيّة التي وشّحت كتاباتها بأقاصيص وحكايا عن اليهود، تحرّكهم ميولات مختلفة، ولكنّها تتّفق على استحضار هذه العوالم التي كانت فيما مضى طيّ العدم عند المفكّر العربيّ، "فلا ينكر المتابع لمدوّنة السّرد العربيّ المعاصر، أن الرّواية العربيّة وهي تتناول اليهود، قطعت شوطًا بعيدًا عن تمثّلات البدايات، التي تراوحت بن التّعاطف مع اليهود باعتبارهم أناسا يتواجدون في ذات المكان، وتربّت الشّخصيات معها دون الاعتبار لديانتها وبين التّحفظ باعتبار إسرائيل العدوّ، إلى نماذج جديدة لم تر في التّعامل مع الإسرائيليين أيّ غضاضة"[46]، ففي منعطف جديد من الأحداث أشار الكاتب إلى حدوث مجزرة في حقّ اليهود المسالمين، فبدأ بسرد أحداث أعقبت المذبحة، والإيحاء بأجواء متوتّرة وتفاصيل مشحونة وأعصاب ملتهبة "العساكر يملؤون الشّوارع ويحاصرون الرّحبة، والأمر لا يتعلق بالبحث عن قطع السّلاح، وإنّما بكارثة حلّت بالرّحبة، ستبقى الرّحبة أسبوعا كاملا محاصرة، سدّت علينا كلّ المنافذ، ولم يبرح الجنود الرّحبة حتّى قبضوا على الجناة"[47]، وبذلك أثار الكاتب من طرف خفيّ فضول القارئ إلى الحدث الأهمّ، الذي عمل على إيراده غبّا حتّى يشدّه إليه ويقيّده بالأخبار الشّحيحة عمدا، حتّى يضفي على النّص غموضا وإثارة متزايدين حتّى يصل إلى النّهاية، ثمّ يشرع في سرد تفاصيل المذبحة، "أمّا الحادثة التي وقعت في الرّحبة وهزّت النّاس في المدينة كلّها، تعرف بحادثة الحارة، ذات ليلة سطا جماعة من الرّجال على سكّان الحارة...كانت ليلة من ليالي الشّتاء القارس، عندما داهم الرّجال بيوت الحارة.. كانوا يحملون الفؤوس والسّكاكين ويطرقون الأبواب. عندما لا يفتح اليهود، يهوون عليها بفؤوسهم، فتنخلع، عندئذ يدخلون، يقال إنّهم كانوا يبحثون عن الذّهب والفضّة، في تلك الأيّام لا يملك الذّهب إلّا اليهود، كانت نقودهم كثيرة هكذا كان يروي النّاس دائما، ولذلك كان الرّجال يدخلون، يهرعون إلى الخزائن، وعندما لا يجدون يمسكون برقاب أهل الدّار ليكشفوا عن سرّ الذّهب والفضّة، وعندما لا يجدون يذبحون من راق لهم ويخرجون"[48]، ثم يرفع من وتيرة الأحداث بتعبير أشدّ وقعا "كانوا يهاجمون البيوت ويحطّمون الأبواب، ويذبحون الرّجال والنّساء، تلك اللّيلة سدّوا منافذ الحارة، ظلّوا لساعات يزهقون الأرواح، تحوّلت المعركة من فلسطين إلى الرّحبة، ولكن لا ذنب لسكّان الحارة فيما حدث هناك قبل أعوام، ولا مبرّر لرجال الرّحبة فيما صنعوه"[49]، ربما تبادر إلى الذّهن من وراء هذه الحادثة التي تحتاج إلى تمحيص وتدقيق، صورة الضّحية التي تلبّست الكيان اليهوديّ على مرّ تاريخه، والظّلم الذي لايزال يلاحقهم، وضلالهم بين المنفى والشّتات، تجلّى ذلك أكثر حين جاء ذكر الطفلة سارة من جديد بحزنها وألمها، سارة التي ترمز إلى الدّيانة اليهوديّة، التي اضطهد أتباعها في تونس، فقد ظهرت هنا باكية واجمة على غير عادتها "البنيّة سارة التي لعبت معها وحدّثتني عن معلمتها وعن حياتها في المدرسة، التفتت ووضعت كفّيها على وجهها، هل كانت تبكي وهي

تتعرّف على الرّجال الذين قتلوا أباها وأمّها أمامها"[50]، ونستطيع هنا أن نلخّص المشهد كلّه في صورة براءة الطفلة سارة وجمالها وعذوبتها، مقابل خبث العربيّ وقبحه ووحشيّته "فعندما لا يجدون، يذبحون من راق لهم ويخرجون"[51] انتقاما من الأبرياء تشفّيا من الهزيمة النّكراء التي مني بها العرب في فلسطين "يقول ناس أخرون، لا علاقة لهذه الحادثة بالذّهب والفضّة، أراد الرّجال أن ينتقموا، المصيبة التي حلّت بالعرب في بلاد المشرق كانت كبيرة، الرّجال لم يستطيعوا أن يتحمّلوا، غاظهم أن يرو سكّان الحارة يستعدّون للرّحيل ونقل ثرواتهم خارج البلد، ولكن الانتقام كان فظيعا"[52] وذلك تلميح لما ساد عقب النّكبة الفلسطينيّة، التي لم ترد اسما بل نستنتجها من خلال ربط الأحداث والتّفاصيل، وغربت شمس هذا المشهد الدّامي على الصّورة الأبديّة لليهوديّ المعذّب المضطهد، "وأقيم في الحارة المأتم الكبير أطفال اليهود يبكون والنّساء يولولن"[53]، فقد صوّر لنا المشهد بفجائعية رهيبة وشعور عميق بالألم تجاه هذا العنف والوحشيّة المسلّطة على هؤلاء الأطفال الأبرياء والنّساء الباكيات، تقودنا هذه الأحداث المروّعة رأسا إلى البحث عن الغاية التي تقف وراء إيرادها بهذه الصّورة، بنسق أشبه بالمزاعم الصّهيونيّة القائلة بمعاناة اليهود في كل قطر من أقطار المعمورة، ثم قسوة الكاتب في حكمة على بني وطنه بالإجرام، وترويع الأبرياء الأمنين، بسوق تفاصيل هذه المذبحة الأليمة، وبالعودة إلى كرونولوجيّة الأحداث نلاحظ نوعا من التّداخل، دلّ عليه الكلمات المطاّطية والتّعابير الموارية التي استظلّ تحتها الكاتب من هجير الوقائع. فما الغرض أو ما الدّافع الذي أدى إلى تسليط الضوء على ما وسمه بالمذبحة، دون أن يأتي بتوثيق تاريخي على قدر ما زعمه؟ ولماذا لوّن الكاتب لفائف روايته بألوان لوحة الضّحية الأبديّة، والتّباكي على أطلال اليهود الضائعين بين المنفى والشتات؟

يمكن أن نخلص إلى أنّ إيراد الكاتب لهذه الحادثة بهذه الوحشيّة المنقطعة النّظير لم تكن إلا وسيلة اتّخذها لتبرير هجرة يهود الحارة نحو فلسطين "بعد ذلك الأسبوع الحافل، تحدّث السكّان عن هجرة اليهود من الرّحبة، لم أكن وقتئذ أدرك المقصود من الهجرة، هل هي هجرة إلى فلسطين أم إلى باريس ومارسيليا"[54] ولعل هذا الفصل لا يختلف كثيرا عما تحاول الألة الدعائيّة الصّهيونيّة نشره للعالم.

7-6-القطيعة مع اليهود...من المسؤول؟

اعتبر الكاتب أن اليهود جزء عزيز من حياته الماضية، فقد كانوا بالنّسبة له صورة عذبة لماضي جميل تحسّر على انقضائه واندثاره، وحاول استعادته كتابةً، "هل تستطيع الكتابة أن ترمّم المكان الذي عبرْته وبنى كيانك؟ اندثر الأن كل شيء، وها أنت تستنجد بالكتابة لترسم المعمار، تسعى الذّاكرة أن تعيد بناء الأشياء وتؤثّث الفضاء، الرّحبة والباب الخشبيّ الثّقيل والحوش الكبير وحارة اليهود"[55]، فاليهود إذن جزء أصيل من تاريخ تونس، "لقد عشت إلى حدود الخمسينات في مجتمع صغير، يشترك في تأثيث فضائه المسلمون واليهود"[56]، وفي هذه العبارة إشارة قويّة إلى حسن الجوار والألفة التي كانت سائدة بين أتباع الديانتين، وكمن يلقي اللاّئمة على وطنه يشير بقوة إلى سياسة القطيعة الحاسمة التي انتهجها المسلمون تجاه اليهود، وكلّ ما يتعلّق بهم، "تهدّم الحيّ القديم، وزالت الرّحبة، في منتصف الستّينات، عندما قام الحيّ الجديد لم أر حارة اليهود ولا كنيسهم، لقد كنسوا جزءا من تاريخي، وها أنا الأن أعود إلى الذّاكرة وأعيد البناء، كان اليهود قد رحلوا، لم يتركوا في مخيّلتي إلاّ

صورة واحدة، لقد كانوا مثلنا أبناء البلد، لكنّهم باعوا نصيبهم إلينا بأثمان بخسة ورحلوا"[57]، حيث اضطرّهم ظلم بني وطنهم أن يتنازلوا عن حق المواطنة قسرا ويرحلوا إلى غير رجعة، حتى أن خوفهم على حياتهم جعلهم يفرّون متنازلين عن حقوقهم.

باطّلاع بسيط على مجريات تاريخ اليهود العرب، نجد "أنّ العلاقة بينهم وبين غيرهم من المواطنين في المجتمعات العربيّة شهدت لحظات هبوط وصعود، غير أنّ أوضاعهم، قياسا بأوضاع أقرانهم في المجتمعات غير الإسلاميّة والعربيّة خصوصًا، اتّسمت بالتّسامح عامّة"[58]، وهذا من شأنه أن يدحض جميع المزاعم التي تروّج لاضطهاد اليهود، فممّا أجمعت عليه المصادر التّاريخية الموضوعيّة، أنّ اليهود عاشوا أزهى عصورهم في كنف الدول الإسلاميّة، أما إجبارهم على الهجرة فجاء كردة فعل طبيعيّة بعد تنكرهم لأوطانهم وخيانتهم للعرب من بني وطنهم، وعلى عكس الدول العربيّة في المشرق، يجد المتابع لتاريخ تونس نوعا من التّسامح الذي طبع العلاقات بين العرب واليهود في البلاد، غير أنّ اليهود بطبعهم يميلون دائما للطّرف الأقوى، فخلال فترة التّواجد الفرنسي في تونس وغداة الاستقلال "نادى اليهود لتمكينهم من الجنسيّة الفرنسيّة، والانصهار في الحضارة الغربيّة، وتمتّعهم بامتيازات الأوروبيين، مستندين، في مطالبهم، إلى أنّ اليهود يعتبرون ذميّن في تونس، ومن حقهم الاستفادة من القانون الفرنسي الذي يخوّل كل أجنبيّ يقيم في تونس الحصول على الجنسيّة الفرنسيّة"[59]، وبعد الحرب، عاد اليهود للتّمتع بالحرية الكاملة، "فبعد الاستقلال، لم يكن بورقيبة معاديا لليهود ولا للصهيونيّة واتّسمت علاقته بهم بالإيجابيّة"[60]، فنستنتج أن يهود تونس هم الذين سعوا للقطيعة وتنكروا لبلدهم التاريخي، أما عن هجرتهم لفلسطين فقد جاءت نتيجة لسياسات الإغراء الصّهيونيّة.

الخاتمة:

ختاما كانت سيرة "حنّة" مرآة انعكست فيها حياة كاتبها، إذ ساهمت بشكل أو بأخر في تجسيد التّصور اليهوديّ الجديد في المخيال العربيّ، وإرساء معالم لوجوده -توهما أو تحقّقا -حسب نظرة كاتبها وما تشبّع به من أفكار وقيم وما ترسّخ عنده من انطباعات، ثم ما زرعه بعد ذلك في كلماته التي لخصت مسيرة حياته والمنظور الذي تناول به حيثيّة اليهود في تونس، وفق التيار العربيّ المتنامي حديثا، الذي أخذ يستجلب الحضور اليهوديّ في كتاباته بشيء من التأنق والتجويد، علما أن المجال الثقافي في تونس يعد منفتحا على الأخر متماهيا في ثقافته مقارنة بغيره، وبغض النّظر عن قيمة السّيرة أدبيا ووزنها فنّيا، فإن الفكر العربي ليعلن النفير العام لصد هذا الاختراق الصّريح للوجدان الجمعي، فمثل هذه الكتابات تجعلنا نتساءل عن دور المثقف ومساعيه الأدبية في صناعة المشهد الثقافيّ، إذ لا يمكن إنكار دور الدّعوة إلى التّطبيع مع إسرائيل، وما أحدثته من تغيير في الوعي الجمعيّ من ميل ظاهر وخفي إلى المهادنة والتّعايش، وبخاصة الدّعوة إلى التّطبيع الثقافيّ، بدعوى فهم الأخر ودراسته لمعرفة كيفية التّعامل معه، في ظهور هذا التيار الروائي الجديد، فالموقف الذي اتخذه الأدباء العرب المعاصرون تجاه قضية اليهود -إنسانيا وفنّيا- ستكون له نتائج خطيرة على الدّور الذي يقوم به الأدب، فتناول شخصية اليهوديّ في الأعمال الأدبيّة العربيّة يضع الكاتب أمام تحد من نوع فريد، فهو ميزان لاختبار ذاته وقيمه، وفي الوقت ذاته انحيازه لقضاياه العادلة، كما هو محكّ لانفتاحه أمام حرية التّفكير وتقبّل الأخر، فإيراد اليهود

بهذه الصّفة الاحتفائية المبالغ فيها يجعل الكتّاب محل شبهة واتّهام، فهو إيراد ملفّق الغرض منه لفت نظر لجان التّحكيم ومموّلي الجوائز الأدبيّة في العالم، وفتح آفاق التّرجمة أمام الكتاب.

وبغض النّظر عن المآلات التي يرنو إليها الروائيّون العرب، يبقى السّؤال المطروح بحاجة للمزيد من البحث والتّعمق الموضوعيّ: لماذا، وكيف، وما الهدف من إعادة استحضار الشخصيّة اليهوديّة إيجابيّا في الأعمال الروائية العربيّة المعاصرة.

هوامش وإحالات المقال:

---

[1]-صلاح صلاح، سرد الأخر- الأنا والأخر عبر اللغة السردية-، المركز الثقافي العربي، لبنان، ط1، 2003، ص198.

[2]- محمد سيد أحمد متولي، صورة اليهود في الرّواية العربيّة المعاصرة رؤية سردية مغايرة، مجلة رسالة المشرق، المجلد 34، ع2، يناير 2019، ص75.

[3]- الندوة الدوليّة، محمد الباردي مبدعًا وناقدًا، أحمد الناوي البدري، جامعة قابس، 29أفريل 2018.

[4] فيليب لوجون، السيرة الذاتية والميثاق الأدبي، تر عمر حلي، المركز الثقافي العربي، لبنان، 1994، ص22.

[5]-سلوى السعداوي، الكذب الحقيقي: من قال إنني لست أنا؟ في إشكالية التخييل الذاتي، الدار التونسية للكتاب، تونس، ط1، ص47.

[6]- المرجع نفسه، ص47.

[7]- محمد الباردي، "حنّة"، دار كنعان، سوريا، ط1، 2008، ص15.

[8]- المصدر نفسه، ص15.

[9]- المصدر نفسه، ص16.

[10]- المصدر نفسه، ص1.

[11]-سلوى السعداوي، الكذب الحقيقي : من قال إنني لست أنا؟ في إشكالية التخييل الذاتي، مرجع سابق، ص47.

[12]-محمد الباردي، "حنّة"، مصدر سابق، ص47.

[13]-المصدر نفسه، ص47.

[14]-غسان كنفاني، في الأدب الصّهيونيّ، دار منشورات الرمال، قبرص، ط1، 2013، ص110.

[15]- محمد سيد أحمد متولي، صورة اليهود في الرّواية العربيّة المعاصرة رؤية سردية مغايرة، مرجع سابق، ص91.

[16]- محمد الباردي، "حنّة"، مصدر سابق، ص18.

[17]- المصدر نفسه، ص18.

[18] المصدر نفسه، ص51.

[19]- غسان كنفاني، في الأدب الصّهيونيّ، مرجع سابق، ص127.

[20]- المرجع نفسه، ص126.

[21] محمد الباردي، "حنّة"، مصدر سابق، ص47.

[22]-المصدر نفسه، ص49.

[23]-المصدر نفسه، ص49.

[24]-محمد سيد أحمد متولي، صورة اليهود في الرّواية العربيّة المعاصرة رؤية سردية مغايرة، مرجع سابق، ص91.

[25] محمد الباردي، "حنّة"، مصدر سابق، ص236.

[26] المصدر نفسه، ص245.

[27]- غسان كنفاني، في الأدب الصّهيونيّ، مرجع سابق، ص121.

[28]- ممدوح فرّاج النابي، تمثّلات اليهودي في الرّواية العربيّة، مجلة الجديد، لندن، ع53، ديسمبر2019، ص50.

[29]- محمد الباردي، "حنّة"، مصدر سابق، ص47.

[30] المصدر نفسه، ص47.

[31] المصدر نفسه، ص60.

[32]-ممدوح فرّاج النابي، تمثّلات اليهودي في الرّواية العربيّة من القطيعة إلى أوهام العيش في جيتو فاضل، مرجع سابق، ص51.

[33]- محمد الباردي، "حنّة"، مصدر سابق، ص156.

[34]- محمد سيد أحمد متولي، صورة اليهود في الرّواية العربيّة المعاصرة رؤية سردية مغايرة، مرجع سابق، ص91.

[35]- محمد الباردي، "حنّة"، مصدر سابق، ص48.

[36]- المصدر نفسه، ص 52.

[37]- المصدر نفسه، ص49.

[38]- المصدر نفسه ص48.

-[39]عادل الأسطة، اليهود في الرّواية العربيّة -جدل الذات والأخر-، الرقمية للنشر والتوزيع الالكتروني، رام الله، ط1، 2012، ص111.

[40]-محمد الباردي، حنّة، مصدر سابق، ص48

-[41]المصدر نفسه، ص47.

[42]- غسان كنفاني، في الأدب الصّهيونيّ، مرجع سابق، ص112.

[43]- المرجع نفسه، ص29.

[44]- عباس شبلاق، حول شعور العداء لليهود في الدول العربيّة، مجلة الدراسات الفلسطينية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، فلسطين، المجلد1، العدد 2، ربيع 1990، ص5.

[45]-المرجع نفسه، ص23.

[46]- ممدوح فرّاج النابي، تمثّلات اليهودي في الرّواية العربيّة من القطيعة إلى أوهام العيش في جيتو فاضل، مرجع سابق، ص51.

[47]- محمد الباردي، "حنّة"، مصدر سابق، ص215.

[48]- المصدر نفسه، ص218.

[49]- المصدر نفسه، ص218.

[50]- المصدر نفسه، ص216.

[51]- المصدر نفسه، ص218.

[52]- المصدر نفسه، ص 218

[53]- المصدر نفسه، ص218.

[54]- المصدر نفسه، ص219.

[55]- المصدر نفسه، ص131.

[56]- المصدر نفسه، ص56.

[57]- المصدر نفسه، ص157.

[58]- أحمد مصطفى جابر، اليهود العرب والصّهيونيّة قبل النكبة من اللامبالاة إلى الاستحواذ، المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية، حيفا، فلسطين،2014. ص5.

[59]-أحمد مصطفى جابر، اليهود العرب والصّهيونيّة قبل النكبة من اللامبالاة إلى الاستحواذ، مرجع سابق، ص31.

[60]-المرجع نفسه، ص31.